

نشر تراث سعادته: نقاش متجدد!



احمد اصفهاني

مرّة أخرى أعود إلى موضوع شديد الأهمية والخطورة بالنسبة إلى المؤمنين بالفكر القومي الاجتماعي، وأقصد به منهجية التعامل مع تراث أنطون سعادته واضع أسس العقيدة القومية الاجتماعية ومؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي. ومكمن الأهمية والخطورة اللتين نشير إليهما هو أن أي مقال مجهول أو رسالة ضائعة يتم العثور عليها لسعادته يمكن أن تلقي أضواء كاشفة على حياته وفكره ونضاله الحزبي. وهذه مسائل حيوية للغاية في وقت تعيش أمتنا وشعبنا تحديات وجودية تتطلب فكراً إنقاذياً، حيث أن القوميين الاجتماعيين يؤمنون بأن عقيدة سعادته تحتزن عوامل ذلك الإنقاذ المرتجى .

إن التعامل مع تراث سعادته يختلف جذرياً عن التعامل مع تراث أي كاتب أو أديب أو مفكر آخر. فكل فكرة أو عبارة جديدة ستصبح فور تأكيد نسبتها إلى زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي جزءاً من قناعات وأدبيات عشرات الألوف من المؤمنين بالفكر القومي الاجتماعي، وقد تؤثر أيضاً على منهجية النظر في مسائل الحياة والكون والفن، مع كل ما يعنيه ذلك من مواقف فكرية واجتماعية وسياسية وتنظيمية.

أدعو، بادئ ذي بدء، إلى التفريق بين عمليتين مترابطتين ومتكاملتين، لكن كل واحدة منهما تتطلب أدوات منهجية مختلفة:

1 - عملية البحث والتنقيب.

2 - عملية التحقيق والنشر.

والثانية منهما تعتمد اعتماداً كاملاً على الأولى، ولا نجاح لها في ما يتعلق بالنصوص المجهولة التي يتم الكشف عنها إلا بجهود المنقبين والباحثين من ذوي الخبرة والدراية في هذا الحقل. أما من الجهة الأخرى، فليس كل منقب أو باحث هو بالضرورة الشخص المؤهل لتحقيق النصوص وتجهيزها للنشر. فالتنقيب والبحث يمكن أن يقوم بهما شخص فرد متمرس وضيع، في حين أن التحقيق والإعداد للنشر (خصوصاً

تراث واضع عقيدة ومؤسس حزب مثل سعادته) يجب أن يكونا بعهدة مجموعة عمل متخصصة أو هيئة حزبية... ولا مانع من، بل من المفضل أن يكون المنقب عضواً في المجموعة أو الهيئة.

وقبل المضي قدماً في موضوعنا هذا، لا بد من إيضاح بعض الظروف المحيطة بطغيان عملية التحقيق والنشر الفردية خلال السنوات القليلة الماضية. ذلك أن غياب المؤسسات الثقافية في الأحزاب السورية القومية الاجتماعية الثلاثة هو المسؤول عن قسم أساسي من ظاهرة فوضى التحقيق والنشر، وليس عملية البحث والتنقيب التي حققت إنجازات مهمة. وأود أن أشير هنا إلى أنني ساهمت شخصياً في تحقيق ونشر كتابين تضمننا رسائل لسعادته. لكنني في الحالتين كنت أتعامل مع نصوص أصلية مؤرخة بخط سعادته وتوقيعه ولا يرقى إليها الشك مطلقاً. والأهم من ذلك أنني كنت جزءاً من مجموعة ذات خبرة وتخصص في الفكر القومي الاجتماعي عموماً وفي كتابات سعادته تحديداً. ومع ذلك لم يخلُ عملنا من صعوبات وأخطاء طفيفة.



مناسبة هذا الكلام صدور كتاب جديد عن دار "فجر النهضة" (2017) للمنقب والباحث القومي الاجتماعي جان داية تحت عنوان "حياتنا الجديدة: 60 مقالة ورسالة ومقابلة مجهولة"، وهي أعمال لسعادته تندرج في سلسلة من الكتب أصدرها داية خلال السنوات القليلة الماضية بهدف جمع ونشر المجهول من تراث منشئ النهضة القومية الاجتماعية. يقول المؤلف في مقدمة عمله الجديد: "يعتبر هذا الكتاب الحلقة الرابعة في سلسلة نتاج سعادته المجهول التي أصدرت منها حتى الآن الحلقات أو الكتب الثلاثة: "محاكمة أنطون سعادته"، "رأي النهضة" و"رأي الجيل الجديد". ولعل الفرق الوحيد بين كتابي "محاكمة أنطون سعادته" و"حياتنا الجديدة" من جهة، وكتابي "رأي النهضة" و"رأي الجيل الجديد"، أن نصوص هذين غير موقعة، في حين توّجت أو ذيلت نصوص الكتابين الأول والرابع باسم سعادته الصريح، لأن النهج والمصطلحات والكلمات والعبارات واحدة في الكتب الأربعة".

أريد أولاً التأكيد على مسائل ثلاث:

الأولى، أن داية في طليعة المنقبين الباحثين الذي أغنوا المكتبة النهضوية بما كشف عنه من تراث كان سيظل ضائعاً لولا جهوده الدؤوبة.

الثانية، أن كلامنا هنا يركز على كتاب “حياتنا الجديدة”، متجنباً الدخول في النقاش الذي أثارته الكتب الأخرى.

الثالثة، أننا سنقصر ملاحظتنا على آلية نشر تراث سعادته تحديداً من خلال النصوص الواردة في “حياتنا الجديدة”، كنموذج نقترحه لمشاريع النشر المستقبلية.

يبدأ الكتاب بأربع مقالات نشرها سعادته في صحيفة “ألف باء” الدمشقية بين 25 نيسان 1931 و5 أيار 1931، وهي على التوالي: “الحالة الحاضرة والعاصفة القادمة”، “سقوط الملكية وقيام الجمهورية في إسبانيا”، “ميثاق كيلوغ”، “الوحدة الجمركية بين ألمانيا والنمسا”. والمقالات كلها موقعة، فلا يرقى الشك إلى نسبتها لسعادته. ومن حسن الصدفة أنني وجدت في الأرشيف صوراً للمقالات الأصلية، ما أتاح لي فرصة المقارنة بين النص المصور والنص الذي نُشر في كتاب “حياتنا الجديدة”. وأعترف بصراحة أنني أصبت بصدمة قاسية للغاية من جراء ما لاحظته من إهمال في آلية النشر ودقته. وقد اخترت المقالتين الأوليين فقط لإعطاء فكرة عما أقول.

“الحالة الحاضرة والعاصفة القادمة”

بعد الفقرة الأولى الافتتاحية (صفحة 23)، سقطت الفقرة الثانية بالكامل وهي على الشكل التالي: “خلفت الحرب العالمية وراءها حالة غير طبيعية قسمت أوروبا إلى قسمين غير متعادلين: غالب ومغلوب، وعلى هذا الأساس وضعت معاهدة فرساي ولم يغن وجود ولسن في أوروبا وتبشيريه ببئوده الأربعة عشر التي تتضمن نظريته لإيجاد سلام العالم، فتياً، ولم يعترض الرأي العام الأوروبي، في تلك الأثناء، على هذه الوضعية الغريبة ولم يدرك مبلغ خطورتها وخطورها على العصر الذهبي الموعود به والسلام الذي ينشده. لأن ظروف أوروبا التي تلت الهدنة كانت ظروفهاً أغرب. ففي الفترة القصيرة بين معركة المارن الثانية وعقد الهدنة انقلبت الوضعية الأوروبية رأساً على عقب وأصبح المغلوب غالباً والغالب مغلوباً. حدث ذلك كله بفضل الولايات المتحدة التي أرسلت قائد جيوشها برشنغ ليقف على قبر لافيتت ويناديه قائلاً: “لافيتت! نحن هنا!” دليلاً على اعترافها بجميل ذلك القائد الفرنسي الذي اشترك في تحريرها من سلطة بريطانيا والعمل على استقلالها”.

إضافة إلى هذا النقص، توجد أخطاء طباعية عدة: ليضع - يضع، الألمانين - الألمانيتين، قدر - بقدر، فأزالت - وأزالت.

“سقوط الملكية وقيام الجمهورية في إسبانيا”

في هذا المقال أيضاً توجد أسطر وكلمات ساقطة:

صفحة 28 السطر الرابع: ما لا يمكن من إغفالها، سقطت كلمة من.

صفحة 29 السطر الرابع: سقطت الجملة التالية “خصوصاً بعد أن زار الملك ألفونسو رومية مستصحباً معه بريم



جان داية

و دي ريفيرا، وما...”

صفحة 29 السطر 21: فعدها الأدباء الإسبانيون دجالة - سقطت كلمة الأدباء

صفحة 30 السطر 12: ما كانت تكون نتیجتها - سقطت كلمة تكون.

صفحة 30 السطر 17: نتیجة نمو الحزبين - سقطت كلمة نمو.

يضاف إلى ذلك أخطاء طباعية عدة: وتوليها - توليها، بلاسكو - لاسكو، بالإستغناء - بالإستفتاء، الخطيرة - الخطية...

إكتفيت بهاتين المقاليتين فقط لأنهما تقدمان النموذج غير المقبول في مجال نشر الكتب بصورة عامة، ونشر تراث سعادته على وجه التحديد. لا أحد يزعم أن بالإمكان تجنب وقوع أخطاء في أي كتاب. لكن هناك فارقاً كبيراً بين أخطاء نادرة قد تعد على أصابع اليد الواحدة في كتاب، وبين النواقص والسقطات التي أشرنا إليها في مقاليتين فقط. خصوصاً وأن بعض هذه الأخطاء ربما يغير المعنى الذي أرادته سعادته، ومن الأمثلة على ذلك سقوط كلمة “الأدباء” من عبارة “فعدها الأدباء الإسبانيون دجالة...”

لا شك في أن المنقب والباحث القومي جان داية يقدم خدمة لا تقدر بثمن عندما يكشف النقاب عن تراث سعادته المؤكد، ويتيح للدراسة والتمعن بين أيدي المؤمنين بالفكر القومي الاجتماعي. غير أن هذه المسؤولية الحيوية تتطلب آليات تحقيق دقيقة للغاية، وروية في النشر بعيداً عن التسرع الذي قد يسيء إلى المؤلف... بقدر إساءته إلى سعادته أيضاً.